إبليس والفـــن

للأستاذ صلاح الدين المنجد

لا تظهر صورة الشيطان فى العصور الأولى من تاريخ الكنيسة ، وينبغى أن نبدأ من القرن السادس ، لنرى التخيلات الأولى ، للشيطان .

وأقدم هـذه التمثيلات توجد الآن فى مخطوط قديم عن أعمال القديس غريغوار دنيزيانز g. de Nizianze محفوظ فى المكتبة الوطنية بباريس .

فهذا المخطوط الذى يرجع عهده إلى القرن التاسع ، يتضمن صوراً أقدم من هذا التاريخ بثلاثة قرون . فإحدى الصور ، تمثل محاولة الشيطان فتنة أيوب ، وفيها يظهر أيوب فى قصره يفكر والشيطان بالقرب منه ، حاملا فى يده حقة طيب ، تتأرج منها الروائح العطرة المكرة ، وكأنه يسخر من الحكيم ويهزأ به .

ولا يظهر الشيطان فى هذه الصورة مخيفاً ، بل ما يزال الملك المطرود ، المتكبر ، وهو هنا ذو جناحين طويلين منتشرين ، وله وراء رأسه إكليل من النور ، تذكر بأصله . ثم هو عارى الجسم حول خصره زنار من السيور ، وليس فى مخايله ما هو بعيد عن خلقة الإنسان ، ولكن يديه ورجليه المعقوفة الأظافر ، تميزه ميزة خاصة .

وفى هذه المخطوطة ، صور أخرى للشيطان وكلها متماثلة . والظاهر أن الفن الاغريقى ، والفن البيزنطى ، لم يشاءا أن يشوها شكل الشيطان . والفنانون الشرقيون فى بيزنطية كانوا ذوى شغف بالجمال ، فلم يهتموا بتصوير هذا الشيطان ، قرينا بالشر ، المخيف المنظر والمخبر .

ولم يقل رجال الدين فى الكنيسة قط ، إنهم رأوا مثلا الشيطان يوما ، بشكل شاب غرانق جميل ، أو بشكل فتاة حسناء كاعب ، ذات وجه ناضر . ولذلك كانوا يصورون الشيطان بالقبح ، ويلونونه باللون المظلم القاتم ، كالأسود أو لون البنفسج ، فهذا سلك الليل الشرير .

وانتقلت هذه الصورة من بيزنطية إلى الغرب ، فاتخذ الشيطان صورة البطل المغلوب المنهزم ، أو صورة الملك المطرود ، الذى ما زال يحفظ سمات الملائكة وصفاتهم .

ولم يلبث أن تبدلت هذه الصورة ، فعندما أراد نحاتو الكنائس الرومانية أن يصوروا الشيطان ، ملاك الشر تمثلوه بصورة أخرى .

وهناك أسباب عدة بعثت على هذا التبديل ، الأول هو رغبة الكنيسة نفسها ، إذ لا ينبغى أن ننسى أن الشيطان شىء خطر ، فهو الخبيث ، الذى لاهم له غير الإغواء والفتنة ، ولا بد إذن من منحه صفات مخيفة راعبة ، كى تنقش هذه الصورة الرهيبة فى قلوب المؤمنين ، فتحفظهم من إغوائه ، وتبعدهم من فتنته .

ولا يجهل من جهة ثانية ، أن أكثر المشاهد المنحوتة فى الكنائس قد استوحيت من الصور أو من القصص الدينية الممثلة فى أفنية الكنائس . فى هذه الأقاصيص يظهر الشيطان محاطا بقناع منحط مزر . فمن هذا الازراء والانحطاط ، استوحى الفنانون تصورهم للشيطان .

وسبب آخر ، هو أن الكنيسة كانت تتعمد أن يستخلص الرائى من صورة الشيطان عبرة وعظة ؛ فكانت تجبر النحاتين أن يجعلوا الفرق شاسعاً بين الملك والشيطان ، مع المحافظة على روح التصاوير البيزنطية .

وفى القرن الثانى عشر ، كان الشيطان يصور فى أغلب الأحايين كما يلى : شكل إنسانى ، ذو جسم ونخذين وذراعين . ولكنه تارة ضئيل الجسم كأنه القزم ، وتارة بالعكس ، عبل القد مستطيل القامة كأنه العملاق . وسواء أكان قزما أم عملاقا ، فقد كانوا يجعلونه ذا هامة ضخمة ، وعينين جاحظتين واسعتين ، وأنف أفطس ، وفم غريب الخلقة لا يشبه فم الآدميين ، قريب إلى فم الكلب ، وأسنان ضخام مخيفات ، وشعور منفوشة ، قائمة كأنها ألسنة اللهب . وقد اصطلح الفنانون على إلصاق هذه الشعور فى رسومهم لكل من له صلة بالشيطان ، وخاصة بالنساء .

أما هامة الشيطان فتستدعى الرثو والعجب لضخامتها . وأما جسمه فهو نحيف ، والبشرة ذابلة جف ماؤها ، ورجلاه وذراعاه عظام لا تكسوها لحم ، وتنتهى بأظافر معقوفة جارحة . وعلى

هذا الشكل صور الشيطان ، فى مواساك Moissac ، أوتين فزيلاى Autun Vézélay.

ويذهب مال E. Mâle الذى نقتبس منه هذه المعلومات إلى أن الرهبان هم الذين كانوا يختلقون هذه الصورة .

وقد ساعدت القصص الدينية ، وما فى الإنجيل خاصة ، على تمثيل الشيطان ، فصوروه تصاوير مختلفات ، تمثله مطرودا من الجنة كاسفا حزينا ، أو جالساً فى الجحيم على عرش فى وسط النار رجلاه على منصة ، تدور حدقتا عينيه المخيفتين ، أوساعيا فى إغواء المؤمنين المخلصين .

وفى القرن الثالث عشر ، تظهر أكثر الصور التى كانت فى القرن الذى قبله . على أن شكل الشيطان نفسه قد اختلف اختلافا محسوسا ؛ لأن تخيلات الرهبان وأوهامهم صورته على شكل تزم قبيح فى منتهى القبح ، ولكنه أقل إرهابا . أما ملامحه فعادت كملامح الإنسان ، هى قبيحة بلا شك ؛ ولكنها أقل تشويها من الماضى . وتبدل مفهوم الشيطان ، فهو لايخيف كما كان يخيف من قبل ؛ ولا شك أنه أضخم من الماضى أيضا ؛ فلا ترى — إذا رأيت صورته — عظاما تخيف ، فوقها جلد نحيف ؛ ولكنه كان أملأ جسما . وقد يلاحظ أن بعض الصور ، كانت تلصق به بعض الملامح الحيوانية ، كأن يجعل له رأس قطة كبير ، أو كأنه القطة الكبيرة ، كما فى نوتردام دُ باري .

على أنه يلاحظ أمر ، هو أنه كلما كان الفن يبتعد عن الدين كانت أشكال الشيطان تجنح عن إثارة الرعب . ففى القرن الخامس عشر كان يخيل للرائى أن الشيطان مخلوق مضحك. وكان يحافظ ، فى أكثر المشاهد التى يصوّر بها ، على اللامح الإنسانية ؛ أعنى أنه كان له دائماً رأس وجسم وذراعان وفخذان .

وبالعكس عصر النهضة فى فقد الشيطان هذه الصفة الآدمية . فنحن نلاحظ أنه بعد منتصف القرن الخامس عشر ، والقرن السادس عشر ، قد طرأ تبديل كبير على ملك الشر .

فلقد فهم رجال النهضة خطأ ما يرمز إليه الشيطان . ولا بد من التنويه بأن فكرة الشيطان لم تعرف فى الديانات اليونانية والرومانية. فى الديانة اليونانية كان للشياطين شأن قليل . فهى أرواح لا أثر لها ، تذهب وتجىء أحايين بين الآلهة والأبطال . ووجودها فى الديانة الرومانية أكثر غموضا أيضا . ولا بد من أن نذكر أن الآلهة فى أثينا ورومة كانت فى آن معا ، أرواح خير وشر ، تضر من تشاء ، وتنفع من تشاء على هواها . أما فكرة وجود ملك للشر يقابل ملك الخير التى كانت توجد لدى الفينيقيين والفرس والهند فلم تعرفها اليونان والرومان .

فليس من الغريب إذن إذا كان فى عصر النهضة تحت التأثير اليونانى الرومانى قد أهمل بعض الإهمال تصاوير الشيطان التقليدية الموروثة ، واستعيض عنها بتصوير آخر . فقد أصبح الشيطان يرمز رمزاً كبيرا إلى القبح الشديد ، وهذا سر انقلابه حيوانا ، له ملامح الحيوانات كلها ؛ كالثور الوحشى ، والخنزير والدب وغيرها . وتعددت الشياطين ، فكثرت صورها أيضا ولم يبق كما كان من قبل ، صورة واحدة لشيطان واحد .

وفى عصر النهضة ، من جهة أخرى ، ظهرت موضوعات أخرى طريفة تمثل الشيطان ، مثال ذلك أن صوروا الموت يخاطب الشيطان ، لأن الموت كان قد بدىء بتصويره منذ القرن الخامس عشر بإيحاء من الكنيسة أيضا كى تخيف المؤمنين مما يعقبها من جحيم ونعيم وعذاب . وفى كتاب Art Moriendi ، لفيرارد Verard ، وهو مزوق مصور ، تظهر صور كثيرة للشياطين ، كلها ذات ملامح فى أغلب الأحايين حيوانية ؛ فقد جعل لها أذناب وقرون وحوافر وغير ذلك .

ويلاحظ أن الشيطان قد أصبح حيوانا عند فنانى وادى الرين Vallée de Rhin أشباه ستيفان ومارتان وبعدهم عند البير دورر ومن جاراهم . ثم يلاحظ كلما تقدمنا فى القرن السادس عشر ، قلة تصوير الشيطان لأن « مجمع ترانت » عندما منع تصوير الشخوص المخيفة ونحتها ضرب الأقاصيص الدينية وشخوصها ضربة قاضية ، فقل تصويره .

حتى إذا أقبل القرن التاسع عشر ، ظهرت صورة جديدة للشيطان، فقد أرظهور فوست لغوته ، وانتشارها الواسع فى ذلك، ودفع الفنانين إلى تصوير هذا الشيطان الرجيم؛ فصوروه كما يلى :

ملك مطرود من رحمة الله ، ترافقه فترة شقاء من قبح ، والجناحان طويلان ينتشران حول الجسم المشوه . وجهه يمثل صورة جانية مستونة مضطربة ، وقد تدثر بدثار . وهكذا صوره دلاكروا فى فوست سنة ١٨٢٨ . وبقيت هذه الصورة شائعة بين الناس ؛ وهى التى يلجأ إليها اليوم فى تمثيل الشيطان .

(دمشق) صلاح الدين المنجد